بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كلما امتد عمر الانسان الحضاري ازدادت تبعاته ، واتسعت أمامه ميادين العمل والبناء ، وتشعبت حوله طرق التطوير والارتقاء ؛ فما كان يحمله على عاتقه — وهو في الالف الاول على سني حضارته — ليس شيئاً البتة ، اذا قيس بما يتراكم على عاتقه في النصف الاول من الالف الثاني ؛ من متطلبات الحياة ، ومرافق النماء ، ووسائل العيش ، ومخاطر الوجود .

فخمسمائة عام كفيلة بأن تقلب مفاهيم العقل واساليب المنطق . واسس العلم . فما هو ثابت في اولها يصبح لاغياً في آخرها ؛ وما هو بديهي في بدايتها ينقلب خرافياً في نهايتها ؛ ولا يعوزنا التدليل على ذلك فهو بيّن واضح لكل ذي عينين .

ولست أدري ، هل تكون نتائج الثورة الحضارية الجديدة ، التي تلف العالم من أقصاه الى أقصاه ، في صالح الانسانية ومن اجل رخائها ، أم تكون هي الخطوات التي تنهي بها البشرية دورها ، والسطور الاخيرة التي تختم بها مسرحيتها . فالدلائل

كلها تشير الى ان كل أربع وعشرين ساعة يضيفها الزمن الى عمر المدنية تزيد من انطلاقها في المغامرة ، وشراهتها لتحقيق الفتوح ، وتضاعف في تعشقهـــا لفض المغاليق وتشوفها لحل المبهمات .

ولكن .. هل انتهت ازمة الانسانية ؟

وهل وجد الانسان ضالته المنشودة .. « السعادة » ؟

هل تآصر بنو آدم لتوفير الرخاء والهناء لبني آدم ، أم انهم تآمروا على اقتسام الغنائم ، واستهام الانصبة في الجهات الاربع من هذه الدنيا ؟

لن ارتجل جواباً لهذا التساؤل ؟

ولكنني اذكّر المتفائلين بالتاريخ نفسه .. تاريخ الحروب والايام الحالكة ، والدماء المراقة والمدن المدمرة ، والشعوب المشردة ، والبلاد المقسمة .

اذكّرهم ــ ولعلهم لاينسون ــ بأن فترة السلام كانت دائماً ، فترة قصيرة من عمر الانسانية تتخذها مهلة للاستعداد لحرب جديدة؟وان هذه الفترة لو امتدت طولاً وعرضاً ، لما كان امتدادها ــ ابداً ــ كافياً لتعمير ما هدمته الحروب ، ولتشييد ما قوضته الاسلحة ؟ وابرز دليل على ذلك ان الانسان المتحضر ، عانى في أقل من نصف قرن من الزمن ، حربين عالميتين ، قدم خلالهما مئات الملايين من الاضاحي الغالية ، وحوّل فيهما عامر الارض غامراً ، ودمر امهات المدن .

وفي هاتين الحربين بددت الانسانية المتمدينة ثروتها كلها ــ وتقدر بالبلايين ــ ثمناً للنار والبارود ؛ ومن اجل آلات الموت والافناء ، وفيهما ايضاً جعلت الانسانية عمالها ، وشبانها ، وشاباتها ، واشلاء قتلاها ، جعلت كل ذلك حشواً للمدافـــع ، وطعاماً للهب .

وماذا كانت نتيجة الاحتراب الطويل ؟ ــ وقد عرضت بايجاز صورة أخيرة

منه ــ وهل وجد الانسان نفسه في منجى من العاصفة ؟ .

هذا هو امل الانسان .. الامل الذي يتضاءل وتتهارب اخيلته الحلوة ، امام نذر الحرب التي تحوّم في الاجواء العالمية ، وتهدد بالفناء كل ذي عرق نابض .

لقد قدح المفكرون زناد أدمغتهم ، وابتكروا مخارج عـدة للازمة الخانقة ؛ ابتكروها في اثواب نظرية براقة ، يخيل للناظر اليها من بعيد ، انها هي آخر المطاف فيما يتعلق بالتنازع الفكري ، وانهـا هي الجنة المرتقبة التي يحلم بها البائسون على الارض ؛ وانها هي خشبة الخلاص التي ستنقذ الانسانية المشرفة على الغرق .

ابتكروا : الديموقراطيـة ، والملكية المقيدة ، والديكتاتورية ، والشيوعية والرأسمالية ، والوجودية ، والبيروقراطية ، والبورجوازية ، الى اخر تلك المذاهب السياسية الحديثة التي يضطرم حولها النقاش ، وتضطرب هي في الحياة ، وتحاول كل منها ان تضم حول نفسها اكبر عدد ممكن من الانصار . واخيراً .. ظهرت الى الوجود نظرية اخرى هي : القومية ، تقاطرت الشعوب على منهلها ، واستقت من مبادئها ، وآمنت بفكرتها ، وتطرف فريق من الناس في فهمها وتطبيقها ، واعتدل فريق آخر وسرت القومية سريان النار في الهشيم في البلاد العربية ، واصبحت عماد النهضة ، ومعقد الامل ، وحور العمل الايجابي والتفكير السياسي .

فاين يقف الاسلام في زحمة هذه المبادىء وخوضائها الكبرى ؟

بل اين تقف هذه المبادىء وتلك النظريات من الاسلام ؟

ان قارىء هذا الكتاب يجد الاجابة على هذه الاسئلة ؟ ويجد ان هذه الاجابة لاتخرج عن السرد المنطقي لتفاعل هـذه النظريات ، والبيان الصريح لامتدادها حيناً ، وانكماشها حينـاً آخر ، ووضوحها تارة ، وغموضها تارة اخرى ؛ ولا نتخطى الايضاح المنهجي بقولنا ان هذه النظريات ليست الامحاولات جديرة بالاعتبار والتقدير ، قامت في اطراف الارض ، لاسعاد بني الانسان ، ولكنها للأسف لم تحقق شيئاً من ذلك ! .

ان هذه المحاولات اشبه ما تكون بأدلة متماسكة النسج، قوية التركيب، فصيحة المنطق، غير انها تساق في معرض الدفاع عن متهم محكوم عليه ؟

اننا نرى ان الانسانية تعاني امراضاً خطيرة، قد يكون فيها فناؤها، ولسنا نشك بأن المحاولات النظريه التي برزت خلال النهضة الانسانية الاخيرة، لتفادي الكارثة، أثرت تأثيراً موضعياً، اشبه ما يكون « بالمخدر الطبي » الذي يؤجل الالام ولا يقضي عليها .

ومن خلال ابحاث هذا الكتاب يلاحظ القارى اننا قمنا بجولة في سوق النظريات — ونحن نحمل الاسلام في صميمنا — ورحنا نلاحظ ما يباينه ويجافيه، ونظهر ما يواكبه ويجاريه، ولم نخرج من هذه الجولة بنتيجة محددة، ولا حملنا القارىء حملا على رأي معين، او اعتقاد محدد، بل تركناه يزاملنا في الطريق، ليتحقق في النهاية من ان : (الاسلام انطلاق لا جمود) وليكون له في هذه المباحث خير معوان على الهداية والاصابة وحسن التمييز .

والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق .

مصطفى الرافعي